الفصل الثاني
الجزيرة العربية قبل البعثة

عاشت الجزيرة العربية حياة يحيط بها الغموض من الناحية الاجتماعية ونستطيع القول بأن الجزيرة مرت في فترة ركود لا تعرف للنظام معنى ، ولم يسمح التاريخ بوحدتها واقعياً إلا عندما انبثقت من أصل واحد ، حروب دائرة ضروس ، نهب وسلب ، إباحية واغتصاب حتى وصلت في القرن الخامس الميلادي إلى ذروتها وما نقله ابن قتيبة : بأن زرارة قد تزوج ابنته وأن لقيطاً ابنه تزوج ابنته دختنوس أيضاً ومات عنها وهي حليلة له .

وارتكبت الفواحش باسم الوثنية وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . وعبدت الأصنام والأوثان والأنصاب والتماثيل والأشجار والكثبان . . . فكان إيمانهم بالله مشوباً مضطرباً لا وضوح فيه ولا استقامة . واتخذوا الأوثان لتقربهم إلى الله زلفى وكانت أحكامهم في أكثر شؤونهم قائمة على الظن

والتخمين لا على الحق واليقين وآمنوا بالفأل والطيرة والكهانة والعرافة وكان لهم فوق ذلك خرافات عجيبة وخزعبلات تدل على ضعف في الفكر وركود في المعرفة .

يحرمون ويحللون دون قيم ولا حكمة ولا مرجع إلا التقاليد المتوارثة عن أجدادهم ولم يعرفوا لها مصدراً إلا الآباء والأجداد .

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾

وأما نظام حياتهم فكان قائماً على ظلم القوي للضعيف وتحكم القادر في العاجز ، واعتمدوا على القوة وحدها في انتزاع الحق . سمتهم الواضحة الأخذ بالثأر وحب الانتقام وما حادثة داحس والغبراء وما آلت من نتائج على القبائل المشتركة فيها بغريبة التي استمرت ما يزيد عن أربعين سنة وقدرت النفوس التي أريقت دماؤها بما يزيد عن مائة وأربعين ألفاً من صناديد العرب وتلك الحرب الثانية التي عرفت بحرب البسوس هي المعركة التي جرت من أجل ناقة وقتل من أجلها الألوف . . .

كل هذا كان في الأمة العربية قبل النهضة الجديدة . . . وأما في الحضر فكانت تجري الدماء بين الأوس والخزرج ، يشعلها اليهود ويوقد حقدها التعصب القبلي الأعمى . . . وهذه الحروب جميعاً تدل دلالة بينة على روح العصر والهمجية الواقعية بين البدو والحضر وفي كل أرجاء الجزيرة آنذاك ؛ كل هذا كان في الجزيرة العربية دون

أن تخضع للرومان أو الفرس على الرغم من المطامع التوسعية لديهما وكان رجال الدين يبذلون وينشرون العقيدة في هذه الجزيرة ولكن دون جدوى ، وظلت كأنها واحة حصينة آمنة من الغزو إلا في أطرافها ، آمنة من انتشار الدعوات الدينية إلا في قليل من قبائلها ، وهذه ظاهرة قد تبدو في التاريخ عجيبة .

وقد كان للعرب في عبادة الأوثان أفانين شتى يصعب على المؤرخين الإحاطة بها لأنه كان لكل قبيلة صنم تدين له بالعبادة بل كان أكثرهم يتخذ صنماً أو نصباً خاصاً له في بيته يطوف به حين خروجه وساعة أوبته ، ويأخذه معه عند سفره إذا أذن له هذا الصنم في السفر ، وهذه الأصنام جميعاً سواء أكانت في الأماكن العامة أو في الأماكن الخاصة ، فإنها تُعدُّ الوسيط بين عُبادِّه وبين الإله الأكبر . ولذلك كان العرب يُعدُّون عبادتهم لها زلفى يتقربون بها إلى الله وإن كانوا قد نسوا عبادة الله لعبادتهم هذه الأصنام .

أما حياتهم الاجتماعية فمن مظاهرها الظلم وخاصة للمرأة فهي في نظرهم نوع من المتاع فلم يكن لها نصيب من الميراث ، بل كانت هي نفسها تورث مع التركة وكان للوارث منها مطلق التصرف . فإن شاء تزوجها ، وإن شاء زوجها من غيره ، ولم يكن للزواج عندهم حدود ولا للطلاق قيود ، فللرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء ، وله أن يطلق المرأة متى شاء ويراجعها متى شاء ، فلا هي زوج لها ما للزوجة من حقوق ، ولا هي مطلقة تملك أمرها

وحريتها . . . إلى غير ذلك من مظاهر الظلم والاستبداد والإذلال . وبعض الجواري كن يرغمن على كسب المال بأعراضهن إرضاء لسادتهن .

وكانت الأنثى على العموم مجلبة للحزن ، ومظنة العار ، فكان العربي يحزن أشد الحزن إذا ولدت له أنثى ، وبعضهم كان يئد البنات مخافة العار والفقر ، وكان الاتفاق يجري عند عقد القران أحياناً على قتل السلالة من البنات .

وكان الربا والخمر والميسر من ضرورات حياتهم ، وكان السكر والعربدة وانتهاك الأعراض من المفاخر التي يتغنّون بها في أشعارهم ومجالسهم ، وكانت اللذة والمتاع أسمى ما تصبو إليه نفوسهم ، همهم الطعام والشراب وانتهاب اللذات قبل أن يدركهم الموت . على الرغم من كل هذا كان في العرب فضائل عنصرية ، وطباع كريمة ، وسجايا ذات وزن كبير في مقياس الرقي الإنساني ، من ذكاء ونبل وشجاعة ووفاء وصدق وكرم إلى غير ذلك من المزايا الكثيرة المشهورة في الأمة العربية . ولكن لم تكن كل مزاياها المعروفة لتمنع قيام حياة جاهلية صماء وخاصة في عقليتها ودينها وعاداتها لأن تلك المواهب العنصرية والسجايا الحميدة التي وصفت بها لا خير فيها إذا لم توجه توجيهاً تربوياً صالحاً ، ولم تسخر لها الأيدي الطيبة لتستخرج منها ينبوعاً للفضائل العملية وبذا

كانت الأمة العربية أشبه بالأرض الطيبة التي أهملت زراعتها فنبتت فيها الحشائش والنباتات الضارة ويمكن القول بأن تلك الفضائل كانت فردية آنية مدفوعة لم تستثمر في حينها . فأنتجت لنا نبات الحقد والعصبية والنهب والسلب ولم تخرج أزاهير الوفاء والقوة والوحدة والانطلاق . ومن قبيل التكامل في الضياع نجد أن المسيحية واليهودية قد انحرفت آنذاك عن أصولها فهاهم أولاء أهل الدين من اليهود والنصارى لا يقلون في فسادهم عن الوثنيين فهناك شوب من الشرك يشوب عقائدهم ، وكثير من السيئات تدنس أعمالهم .

﴿ وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يعملون ! لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ !! بل ﴿ إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ .

فهذا الجهل الذي أفسد دينهم وزلزل عقائدهم ، وهذه الخرافة التي سيطرت على عقولهم وقلوبهم ؛ وهذه الفوضى التي سادت نظمهم وتقاليدهم ، وهذه البهيمية التي صبغت حياتهم وهذه العداوة التي مزقت وحدتهم وتلك الحروب التي أنهكت قواهم ، وتلك الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء هي التي جعلت نفراً من

حكمائهم يفكرون في أمر دينهم ، ويتساءلون فيما بينهم ، أهذه الأوثان آلهة تنفع أو تضر ، أهذه هي الحياة المثلى التي تليق بالإنسان ؟ أخلق الإنسان ليأكل ويشرب ويقضي حاجياته وشهواته وكفى ؟ وما الفرق إذن بينه وبين الحيوان الأعجم ؟ . .

وجعلوا يتلفتون إلى ما حولهم لينظروا أي دين هو أهدى إلى الصواب ، وأقرب إلى الحق ، أهو دين النصارى ؟ أم دين اليهود ؟ أم دين المجوس ؟ . .

أما المجوس فهم والعرب سواء في ضياعهم وضلالهم وأما اليهود والنصارى فقد غيروا وبدلوا وتفرقوا واختلفوا .

﴿ وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ﴾ .

اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . . . وسارعوا كما يسارع غيرهم في الإثم والعدوان وافتراء الكذب . . . إذن فليس اليهود والنصارى على شيء فأين الدين الحق الذي يصل بالإنسان إلى مدارك الكمال ؟ . .

كانت هذه الحيرة تشغل بال المفكرين من حكماء العرب وعقلائهم ، فداروا يبحثون عن عقيدة تشفي غليل نفوسهم ، وتروي ظمأهم الروحي والأخلاقي والاجتماعي . وذكر ابن إسحق أن قريشاً اجتمعت يوماً في عيد لهم ، عند صنم من أصنامهم كانوا

يعظمونه ، وينحرون له ويطوفون به ، فخلص منهم أربعة نفر يتناجون ، وهم ورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل فقال بعضهم لبعض : اعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم . . ! ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع . .؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً غير هذا الدين ، فإنكم والله ما أنتم على شيء . . ! فتفرقوا في البلدان يلتمسون لأنفسهم الدين الحق .

هكذا كانت حالة العرب ، وهكذا كانت حالة العالم كله ، دنيا تلفظ أنفاسها الأخيرة . . أمم اتخذت الذئب راعياً والرذيلة مذهباً إلا قلة قد بعدت عن الانغماس في الإباحية وما أجلها لو حملت لواء الحق آنذاك لتنشره بين الإنسانية التي تمر في فترة الطفولة . . .

فعالم يتطلع إلى المصلح وأمة عربية تتطلع إلى المصلح وإنسانية تتطلع إلى المصلح .

* * *